نصوص وحقائق لم تنشر

عن أصل النهضة العربية في سورية

بدأت أولى الحركات التي بعثت روح الاستقلال العربي في سورية ، ووُضعت المبادىء التي أسست عليها الثورة العربية في دمشق . هذا ما يعرفه الناس على وجه الإجمال والتصديق ، ولكن قل من يعرفه على وجه التفصيل والتحقيق ، لأن الكتب التي تتناول هذا الموضوع ، في اللغة العربية وفي اللغات الأجنبية ، لا تخلو من نقص سببه أحياناً قلة اطلاع المؤلفين ، وأحياناً تعصبهم الديني أو السياسي أو غير ذلك .

وقد انكشفت لنا في السنين الأخيرة ، أثناء البحث في تاريخ سورية الحديث، نصوص لم تنشر وقفنا فيها على حقائق جديدة ، فرأينا نشر هذه وتلك في هذه المقالة لتوضيح ما يستحق التوضيح وتصحيح ما يستوجب التصحيح ، ومعظم هذه النصوص موجود في سجلات وزارة الخارجية البريطانية ، وبعضها في سجلات وزارة الخارجية الفرنسية ، وفي دار الوثائق التاريخية القومية في القاهرة وفي السجلات الرسمية الخاصة بجمعيات انكليزية وأمريكية وافرنسية .

يؤرخ بعض الكتاب دون تمحيص بدء النهضة الحديثة في مصر وسورية من حملة نابليون . ولكن إذا صح هذا على مصر فلا نراه صحيحاً على سورية ، فالثابت أن نابليون لم يترك فيها بعد ارتداده عن عكا سوى الدمار ، وإن بوادر النهضة لم تظهر في البلاد السورية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومع هذا فقد شهدت سورية أثناء الحكم المصري شيئاً من النظام الجديد الذي أنشأه محمد علي في مصر . فمثلاً فتح تأسيس المجالس الاستشارية أول سبيل لتعاون النصارى مع إخوانهم المسلمين في المصالح العامة ، وأظهر إنشاء بعض المدارس العسكرية لمفكري سورية إمكان تجديد المدارس الدينية والطائفية .

بالغ الذين لم يطلعوا على الوثائق الرسمية في عدد المدارس المصرية في سورية ونوعها وغايتها ، حتى ذهب انطونيوس إلى أن الابتدائية منها قد أسست في سائر أنحاء البلاد ، وان الثانوية قد أسست في المدن الرئيسية ، وان غاية هذه المدارس كانت نشر التعليم العام وتنمية روح القومية العربية ، لم نجد في الوثائق الرسمية ما يؤيد هـــذه الأقوال ، وكل ما وجدناه ان ابراهيم باشا ، بعد أن فرض الجندية على السوريين ، أسس عدداً قليلاً من المدارس العسكرية في دمشق وانطاكية وحلب بلغ مجموع الطلاب فيها نحو ألف ، وغايتها الأولى كانت اعداد الضباط الذين يعرفون القراءة والكتابة . ووجدنا أيضاً أن بعض أبناء الموظفين والموسرين قد أرسلوا من سورية إلى مصر للتعليم في مدارسها المختلفة .

لكن الوثائق الرسمية تثبت أثراً ثقافياً مهماً ظل مجهولاً حتى الآن ، فقد أدخل المصريون إلى سورية عدداً كبيراً من الكتب التي طبعت في بولاق باللغة العربية ، سواء منها المؤلفة أو المترجمة . وقد اطلعنا على قوائم الكتب التي طلبها رجال الدين وموظفو الحكومة وأعضاء المجالس الاستشارية والأطباء والصيادلة وضباط الجيش والمعلمون والوجهاء ، من المسلمين والنصارى . وقد أعدت هذه القوائم في حلب ودمشق واللاذقية وطرابلس ويافا وغزة ، وهي تشمل مئتين كتاباً في مختلف المباحث من العلوم والرياضيات والطب واللغة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والفقه والتصوف والتاريخ والجغرافية والرحلات ، وبلغ مجموع عدد النسخ التي طلبت ١٥٩٦ (١) .

تدل هذه القوائم دلالة واضحة على أن حب الاطلاع قد شمل كل الطبقات المتعلمة في سورية ، وانه لم يقتصر على المواد الدينية واللغوية . فقد طلب القراء كتاب السيرة الحلبية ، والكفراوي ، وابن عقيل ، وابن مالك ، وقاموس الفيروزابادي ، وكليلة ودمنة ، كما طلبوا رحلة رفاعة الطهطاوي ، وانشاء المطار ، وكتباً عن الحساب ، والجغرافية الطبيعية ، وعلم الطبيعة ، وجر الأثقال ، والمعادن ، وقانون الصناعة ، وكما طلبوا أيضاً كتباً عن التشريح ، والجراحة ، وعلم الأمراض ، والأقراباذين . وأهمية هذه القوائم ظاهرة لمن يريد مقابلتها مع ما ترجمه الأمريكان من الكتب المشابهة لاستعمالها في مدرسة عبية ثم في الكلية السورية الانجيلية ، فقد سبقهم المصريون إلى ذلك بنحو جيل على الأقل .

وللحكم المصري في سورية أثر آخر يستحق البيان ، وهو أن إبراهيم باشا اتخذ سياسة اصطناع النصارى حتى ولو أغضب ذلك المسلمين ، وهذه السياسة فيما نرى ، مهدت السبيل لمن قالوا بعدئذ بفصل المذهب عن السياسة ، أو الدين عن الدولة . وأول قائل بذلك مسلم كما تثبت الوثيقة التالية : كتب ابراهيم باشا إلى متسلم اللاذقية في ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢٤٨ هـ « الإسلام والنصارى جميعهم رعايانا ، وأمر المذهب ماله دخل بحكم السياسة ، فيلزم أن يكون كل بحاله ، المؤمن يجري اسلامه والعيسوي ، كذلك ، ولا أحد يتسلط على أحد » (٢)

وهذا الذي قاله ابراهيم باشا صراحة أضمره السلطان عبد المجيد في خط كلخانه الذي صدر في سنة ١٨٣٩ م ، ففيه أعلن السلطان عزمه على المساواة

(١) محفظة رقم ٢٥٧ : كتاب مؤرخ في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٥ هـ من شريف باشا (دار الوثائق التاريخية القومية في القاهرة) .
(٢) محفظة رقم ٢٣٨ (دار الوثائق التاريخية القومية في القاهرة) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بين جميع رعاياه دون تمييز ديني ، وتنفيذاً لذلك أعاد نجيب باشا والي دمشق تأسيس المجلس الاستشاري ، وفيه المسلم وغير المسلم ، كما كان في عهد إبراهيم باشا . ولكن الرأي العام كان معاكساً لما ابتدعه المصريون وما أعلنه السلطان على السواء ، وخاصة عندما ازداد تدخل الدول الأوروبية الكبرى في شؤون الدولة العثمانية ، وكثر تزاحم هذه الدول على النفوذ في سورية . ففرنسا ادعت لنفسها حماية الكاثوليك ، وروسيا ادعت لنفسها حماية الارثوذكس ، وانكلترا حاولت حفظ التوازن بينها ، ولكنها ظاهرت الدروز في لبنان ، وحمت اليهود في فلسطين ، وشجعت الذين اعتنقوا المذهب البروتستانتي من العرب في سائر سورية ، وتدخلت تدخلاً أشبه فرْض حمايةٍ غير رسمية على الدولة العثمانية ، فهذا قنصلها في القدس يطلب عزل قاضي شرعي لا يناسبه ، وهذا سفيرها في استانبول يطلب إلغاء أحكام الشريعة بشأن اعدام من يصبأ عن الإسلام ، ويرغم الباب العالي على الاعتراف بالبروتستانت « ملةً » ، مع أن عدد أفرادها لم يزد حينئذٍ على المئة .

وازداد التنافس بين فرنسا وروسيا في القدس وبيت لحم ، في الميدان الديني والثقافي على السواء ، حتى أفضى ذلك إلى حرب القرم ، وفيها وقفت انكلترا وفرنسا بجانب الدولة العثمانية ضد روسيا ، فنشأ عن ذلك ، بعد عقد الصلح ، اضطرار السلطان أن يُرْضي أوروبا أكثر من ارضاء المسلمين من رعاياه ، فاوروبا كانت دائماً تطلب الامتيازات ولا تحفل بما يقع على المسلمين من ظلم ، فولّد هذا استياءً عند المسلمين من الدولة وخلق توتّراً بينهم وبين مواطنيهم من النصارى ، فالمسلمون الواعون كانوا يخشون الانتقاص من حكم الشريعة ، وعامتهم كانت ترى أن ما يصيبه النصارى من تقدم أو امتياز يجيء عن طريق أوروبا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في هذا الجو القاتم أصدر عبد المجيد في سنة ١٨٥٦ م الخط الهمايوني ، تأكيداً لخط كلخانه وتوسيعاً لمبادئه وتصميماً على المضي في تنفيذ ما عرف « بالتنظيمات الخيرية » . ونص هذا المرسوم الجديد على الموافقة على المجالس الاستشارية المشتركة ، وأمر بانشاء محاكم مختلطة ، وفتح باب التوظف في دوائر الحكومة لغير المسلمين وقبلوا في الجيش . وأعلن الباب العالي اعفاء من يتجند منهم من دفع الجزية ، وسمح لمن لا يريد التجند أن يدفع « بدلاً » أي مقداراً من المال . والغريب أن الكثرة الساحقة آثرت دفع البدل أي الجزية باسم آخر .

وعليه فالتنظيمات التي ساءت المسلمين لم تُرْضِ غير المسلمين ، بل كان من نتائجها ازدياد التوتر بين الطرفين في سورية وبدء تذمر العرب المسلمين من حكم الأتراك العثمانيين . غير أن ابطال التنظيمات أو إيقاف العمل بقوانينها لم يكن مستطاعاً حتى لو وجدت رغبة في ذلك ، ففي نحو ربع قرن نشأ على أساسها ازدواج في القوانين والمحاكم التي طبقتها وفي المعارف والمدارس التي نشرتها ، فهناك قوانين جديدة أخذت عن أوروبا تطبقها محاكم نظامية ، وتستولي بذلك على كثير مما كان من اختصاص المحاكم الشرعية ، وهناك مكاتب جديدة لها برامج وأغراض تخالف برامج الكتّاب والمدرسة وأغراضها . وهناك بالإضافة إلى ذلك أصناف من المدارس الأجنبية المستقلة تديرها جمعيات إفرنسية أو إنكليزية أو أمريكية ، ويختص كل صنف منها على الغالب بطائفة من الطوائف ويتميّز بتعليم لغة جمعيته ونشر ثقافة قومه ، ونشأت أو نمت بجانب المدارس الرسمية والمدارس الأجنبية مدارس أهلية خاصة للمسلمين ولغير المسلمين ، تديرها الهيئات الدينية أو الجمعيات الخيرية أو الأفراد . وأخذت هذه المدارس تساير المدارس الأجنبية بل تنافسها حتى في تعليم اللغات والعلوم الحديثة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاض الكتاب في أثر هذه المدارس المختلفة في النهضة التي أصبحت واضحة المعالم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . فبعضهم أرجع الفضل كله إلى مدارس البروتستانت ، وبعضهم أرجعه إلى مدارس الكاثوليك ، وقل من جعله مشاعاً بين المدارس الأجنبية عامة والمدارس الأهلية من إسلامية ونصرانية ، وليس منهم من أنصف فحصر أثر المدارس الأجنبية بالطوائف النصرانية لأنه لم ينتسب من المسلمين إليها عدد يذكر قبل أول القرن العشرين . ومما يجب تصحيحه أيضاً أن الأجانب لم يبتدعوا المدارس والمطابع بعد ما جاءوا إلى سورية ، بل بنوا على أسس أهلية موجودة واستفادوا من مواهب أهل البلاد . وهذا ينطبق على اليسوعيين كما ينطبق على الأمريكان ، ولكن لا يقصد من هذا القول التقليل من شأن هؤلاء أو هؤلاء .

واستمر الازدواج المذكور حتى عهد عبد الحميد ووزارة مدحت باشا التي أعلنت الدستور على أساس الحرية والعدالة والمساواة ، وتلا ذلك انعقاد أول مجلس تمثيلي في تاريخ الدولة العثمانية ، مثّل سورية فيه من المبعوثين المسلمين نافع الجابري (حلب) وخالد الأتاسي (حمص) وحسين بيهم (بيروت) ويوسف ضيا الخالدي (القدس) ، ومن المبعوثين النصارى نقولا النقاش (بيروت) ونوفل نوفل (طرابلس) ، فكان ذلك فاتحة النظر في مصلحة وطن مشترك ، عثماني أو سوري ، يجمع المسلمين والنصارى .

ولم يكن هؤلاء النواب ، على خلاف ما شاع حتى في كتب الباحثين ، أصناماً يوافقون الحكومة دون سؤال ، بل الثابت أن الجابري والخالدي كانا من رؤساء ما يصح أن نسميه حزب المعارضة . وكان الجابري أول مبعوث استجوب الوزراء ، فقد سأل سؤالاً عن ميزانية الدولة ، وآخر عن اخفاق الأسطول العثماني في الحرب التي قامت بعد نحو شهر من انعقاد المجلس ، وبعد حل المجلس بأمر عبد الحميد أبعد النواب السوريون حالاً من العاصمة ، فزاد ذلك اهتمام المفكرين بالوطن السوري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأمضت الدولة صلحاً مع روسيا لم يُرْض انكلترا ، فعد مؤتمر برلين وتمّ الصلح فيه على أساس دولي ، وقبل ذلك احتاطت انكلترا لما ظنه السياسيون اقتراب انحلال الدولة العثمانية ، فنظرت في الحصول على قاعدة بحرية في شرق البحر الأبيض المتوسط لصد التوسع الروسي ولحماية قناة السويس . والمشهور ان انكلترا اتفقت مع السلطان لاحتلال قبرص ، وفي غير المشهور أو المجهول انها قبل ذلك فكرت في احتلال سورية ، حتى ان الاتفاق بشأن قبرص يذكر ان احتلالها سيوطد حكم السلطان في سورية ، ويمنع الدسائس لتحريض أهلها على الثورة . (١)

وقد رأينا تقريرين سريين كتبا قبل اتفاق الانكليز مع السلطان على احتلال قبرص بقليل ، والتقريران يُحَسِّنان احتلال سورية ويهوّنان أمر ذلك على الحكومة البريطانية . فأحدهما يؤكد استياء المسلمين في سورية من الحكم التركي وترحيبهم باحتلال يوحّد سورية ومصر تحت الحكم البريطاني ، كما يؤكد ثانيهما ان احتـــلال سورية من الأمور الهينة وان السوريين لن يقاوموه . والذي جعل انكلترا تؤثر قبرص على سورية هو رغبتها تجنب اثارة حسد روسيا أو غضب فرنسا مما قد يفضي إلى حرب ، ولكن الساسة الانكليز لم ينسوا سورية بعد ذلك .

في سنة ١٨٧٩ زار السيد هنري ليـارْد ، السفير البريطاني في استانبول ، سورية ، ووصلها على ظهر سفينة حربية ، فاستقبل استقبالاً رسمياً ، وسمح لنفسه الاستفسار عن سير الإدارة وسماع الشكاوى كأنه أحد وزراء السلطان ، فظن بعض أهل البلاد ومن فيها من الأجانب ان بريطانيا كانت على وشك فرض

---

(١) وثيقة سرية خاصة برئاسة الوزارة البريطانية مؤرخة في ٢٣ أيار ١٨٧٨ (دار الوثائق العامة ، لندن : F. o. 78 / 2768 .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حماية على سورية . وكان الوالي حينئذٍ الصدر الأعظم السابق مدحت باشا . ويذكر السفير في تقريره (١) عن الزيارة من جملة أعمال مدحت باشا : تنظيم الشرطة ، وبناء الطرق ، وتشجيع المسلمين والنصارى على التعاون لتأليف غرفة التجارة في بيروت . ولكنه لا يذكر تأسيس المدارس في دمشق وغيرها ، ولا البدء باقامة مكتبة عامة عرفت فيما بعد بدار الكتب الظاهرية ، ولا تأسيس جمعية المقاصد الخيرية التي اهتمت بفتح المدارس لأبناء المسلمين وبناتهم — فهذه كلها تمت بتشجيع مدحت باشا في السنة الثانية والأخيرة من ولايته ، أي بعد زيارة السفير .

ولتقرير السفير أهمية أخرى ، وهي تأكيده مضار الازدواج في القوانين . فهو يقول ان القوانين الجديدة قد انتجت تشويشاً في المحاكم ومزيداً من الظلم بدلاً من العدل ، وظاهر من التقرير ان استياء علماء المسلمين من هذه الاجراءات كان عميقاً ، فقد وقف شيخ من رؤساء « المتعصبين » بالجامع الكبير بدمشق واتهم مدحت باشا بالكفر ، فهو الذي أرغم السلطان على اصدار الدستور ، وهو الذي ذهب إلى أكثر ما ذهب إليه من سبقه من رجال التنظيمات في ارضاء اوروبا على حساب الإسلام والمسلمين .

لكن لولاية مدحت باشا أهمية خاصة ، لما زعمه بعضهم انه بذل جهده سراً للاستقلال بحكم سورية ، وانه حرض بعض السوريين على اذاعة مناشير تدعو العرب إلى المطالبة بحقوقهم في الدولة العثمانية ، يقول سليم سركيس (٢) ان مدحت باشا أراد اختبار استعداد السوريين للثورة توطئة لاستقلاله بشؤون

---

(١) تقرير سري مؤرخ في ٢٠ اكتوبر ١٨٧٩ من السير هنري ليارد الى اللورد سالسبري (دار الوثائق العامة ، لندن : F. o. 78 / 2960) .

(٢) كتاب سر مملكة (مصر ١٨٩٥) ، صفحة ٦٢ وما يليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سورية على نحو استقلال مصر ، فاستخدم من أخصائه أحمد مهدي الأيوبي وحسن فائز الجابي ، لاجتذاب بعض الشبان الأذكياء وتأليف جمعية سرية لنشر اعلانات يختبر مدحت باشا بواسطتها ميول السوريين :

وكان من أول ما نشر قصيدة سينية مطلعها « دع مجلس الغيد الأوانس » ، فيها شكوى من ظلم الترك ، وحنين إلى ماضي العرب ، ودعوة إلى الثورة :

فالترك قوم لا يفو ز لديهم إلا الشاكس
أو لستم العرب الكرا م ومن هم الشم المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم نا راً تروّع كل قابس

ثم نشرت بعد ذلك قصيدة أخرى جاء فيها :

يا دولة الترك اتركي عنك العناد وباشري الاصلاحا
أوْ لا فدونك ثورة تفني الجسوم وتخطف الأرواحا

ورواية سركيس هذه مبنية على ما وقف هو عليه أثناء اقامته في دمشق في سنة ١٨٨٧ ، أي بعد نحو سبع سنوات من بدء ظهور المناشير والاعلانات ، ويستنتج من روايته أن أحد الشبان الذي وكل إليه إلصاق المناشير على أبواب المساجد والكنائس والقنصليات والحوانيت كان نصرانياً ، وقد توفي بعد ذلك وخلف أوراقاً اطلع عليها سركيس عند أم الشباب محفوظة في صندوق ، فنصح باتلافها ، لأنه رأى فيها ما يشبه وقائع جلسات الجمعية السرية التي أذاعت المناشير والاعلانات ، واكتشاف هذه الأوراق خطر على الأم وعلى كل من ذكرت أسماؤهم في الأوراق . ثم يقول « وهكذا ذهبت تلك الآثار التاريخية ، ولم يبق منها إلا القليل أدونه في هذا التاريخ . »

ليت سركيس لم ينصح باتلاف تلك الوثائق الثمينة ، أو ليته بعد أن أتلفت زادنا علماً بمادتها بناءً على ما رأى هو فيها . ولكننا مدينون لغيره لحفظ بعض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه الوثائق كما سنبين فيما يلي . لكن لا بد قبل ذلك من الإشارة إلى اتجاهين من اتجاهات الاستياء من الحكم العثماني ازداد ظهورهما في سورية بعد حرب القرم وحوادث سنة ١٨٦٠ . أما أحدهما فكان مقصوراً على المسلمين ، وخاصة طبقة العلماء ، الذين استاءوا من الانتقاص من حكم الشريعة بتطبيق قوانين التنظيمات . وأما ثانيهما فاقتصر على نفر من المفكرين بين المسلمين والنصارى على السواء ، كان غرضهم اصلاح الحكم العثماني في سورية ، وإعلاء شأن اللغة العربية في دوائر الحكومة والمدارس .

ولعل أهم مظاهر الاستياء الإسلامي المحض ما نقرأه في تقرير من القنصل البريطاني في حلب كتبه سنة ١٨٥٨ ، فقال ان المسلمين في شمال سورية كانوا يكرهون حكامهم الأتراك ويعتبرون إسلامهم ناقصاً ، وان المسلمين كانوا « يأملون الانفصال عن الدولة العثمانية وتكوين دولة عربية حديثة تحت رئاسة شريف مكة »(١) . فأهمية هذا التقرير أنها تثبت أن أهل سورية المسلمين هم أصل الفكرة التي طبقت في سنة ١٩١٦ ، عندما دُعي الشريف حسين بن علي لقيادة حركة الاستقلال العربي .

أما المفكرون فكانوا على الإجمال ايجابيين ، أرادوا التعاون مع الدولة على أساس مبادىء التنظيمات ونشر المعارف والاهتمام باللغة العربية ، فقادهم ذلك تدريجياً إلى ازدواج في الولاء ، ولاء للدولة تحت راية الجامعة العثمانية ، وولاء « للوطن » السوري تحت راية اللغـــة العربية والمصالح المشتركة بين المواطنين من المسلمين والنصارى ، ومن هذه المصالح ، خارج نطاق المجالس الرسمية ، تعاون الطرفين في ميادين التجارة والصناعة والثقافة ، ومن أهم

(١) تقرير رقم ٢٠ مؤرخ في ٣١ تموز ١٨٥٨ من القنصل سكين (دار الوثائق العامة ، لندن : F. o. 78 / 1389) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مظاهر التعاون الثقافي في تأسيس الجمعيات الأدبية ، من انتهاء الحكم المصري حتى ولاية مدحت باشا .

ففي أول سنة ١٨٤٦ تأسس في بيروت « مجمع التهذيب » وكان أمين سره بطرس البستاني ومن أعضائه ناصيف اليازجي وغيره من السوريين وبعض مبشري الأمريكان ، وكان غرضه اكتساب المعرفة ونشرها ، مع عدم التعرض للمسائل الدينية والسياسية ، وعمّر هذا المجمع نحو خمس سنوات . وتأسست في سنة ١٨٤٩ في القدس « الجمعية الأدبية » لأغراض مشابهة لمجمع بيروت ، ولم تعمّر « طويلاً » وفي سنة ١٨٥٠ تأسست في بيروت « الجمعية الشرقية » تحت إرشاد اليسوعيين ، وكانت أغراضها مشابهة لأغراض الجمعيتين السابقتين .

كانت هذه الجمعيات طائفية ، غلبت البروتستانتية على الأولى والثانية ، والكاثوليكية على الثالثة ، فلما خرجت البلاد من محنـــة سنة ١٨٦٠ عاد المفكرون إلى تأكيد رابطة اللغة العربية ، فأسسوا سنة ١٨٦٨ ، على أنقاض جمعية سابقة مماثلة ، « الجمعية السورية العلمية » تحت رئاسة الأمير محمد أرسلان وفيها أعضاء من كل الطوائف . وكانت أغراضها كأغراض الجمعيات السابقة ، إلا انها اهتمت أكثر من الجمعيات المتقدمة الذكر ، ببيان ما كان للعرب من فضل على العلوم والآداب . واعترفت الحكومة العثمانية بالجمعية ، وانتسب إليها عدد من كبار رجالها كفؤاد باشا .

بالغ أنطونيوس (١) فأرجع أصل الحركة القومية العربية إلى هذه الجمعية وأمثالها ، وأخطأ عندما نسب أصل كل المناشير التي ظهرت في آخر ولاية مدحت باشا وبعدها بقليل إلى جمعية سرية أعضاؤها من الطلاب النصارى في الكلية السورية الانجيلية (المعروفة الآن بالجامعة الأميركية في بيروت) ، وعندما

(١) G. Antonius, The Arab Awakening (London, 1938), P. 54 — 5

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال إن انشاد القصيدة التي مطلعها « تنبهوا واستفيقوا أيها العرب » في اجتماع سري لهذه الجمعية كان أول نداء للاستقلال العربي . أما القصيدة فتنسب الآن إلى الشيخ ابراهيم اليازجي ولكن المعاصرين ، ومنهم سليم سركيس ، نسبوها إلى أحد علماء المسلمين . وأما أول نداء للاستقلال العربي فقد ظهر ، كما بيّنا فيما سبق ، بين المسلمين في حلب ، قبل نحو عشرين سنة من انشاد القصيدة ، وأصل الشك في اسم صاحب القصيدة رغبة الشاعر ، كائناً من كان ، أن يتجنّب غضب ذوي السلطة .

يقول أنطونيوس إن أول جمعية استقلالية عربية ظهرت في سورية حوالى ١٨٧٥ ، وقوله هذا ، كما تبين لنا استنتاج مبني على تقرير القنصل البريطاني في بيروت المؤرخ في ٣ تموز سنة ١٨٨٠ . ولكن السفير البريطاني قد سبق القنصل ، فبحث أصل المسألة مع مدحت باشا وقال في تقريره الذي أشرنا إليه سابقاً .

« سألت رفعته هل علم بمؤامرة اسلامية أو عربية مركزها مكة أو المدينة ، وغايتها الاستيلاء على عرش السلطنة العثمانية وتأسيس امبراطورية عربية ، فقد فهمت من التقارير الرسمية التي وصلتني ان دعاة هذه الحركة قد انبثوا في جميع أنحاء السلطنة ... يمهدون السبيل للثورة . فأجاب رفعته أن ما بلغه هو في الأيام الأخيرة يثبت الأخبار التي وصلتني ، فقد علم برجل من أهل الحجاز اسمه الشيخ علي ، كان حينئذٍ جاداً في سورية لاكتساب أعضاء لجمعية سرية ، وان دعوته قد صادفت نجاحاً حتى بين الجنود ، فتأسست لها لجان سرية في المدن الرئيسية ... [ثم قال السفير] وعندي ما يؤكد أن هذه اللجان السرية في سورية مكونة من المسلمين والنصارى ، وان غرضها تخليص البلاد من سوء الحكم العثماني وتأسيس نوع من الحكم الذاتي العربي ... » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعد هذا التقرير بنحو سنة ظهرت بعض المناشير الخطية في دمشق وبيروت وصيدا وطرابلس وغيرها ، ومن هذه المناشير ثلاثة محفوظة في سجلات وزارة الخارجية البريطانية ، أحدها بصورته الأصلية . وفيما يلي نص هذه المناشير ، ننشرها خدمة للتاريخ ، دون إصلاح الخطأ :

المنشور الأول (١)

(في رأسه صورة سيف مسلول مرسوم بحبر أحمر)

أبناء سورية

١ — ان إصلاح الترك محال ، وإلا فما الذي يمنعهم أن يصطلحوا منذ عشرين سنة إلى الآن ، وقد تعهدوا بشرفهم للرعية مراراً لا تحصى بالإصلاح فماذا تؤملون منهم ؟ .

٢ — إن الأتراك ، مع تأصلهم في الفساد وفرط جهلهم وتخنثهم ، بقوا يحكمون بمليونين منهم ٣٥ مليوناً من عباد الله حتى أمس ، ألا يوجد بين عقلائنا وأبناء وطننا وذوي حميتنا أناس يقدرون أن يتولوا أمورنا ويغاروا على شرفنا ونهاض وطننا ونحن مليونان فقط أبناء وطن واحد ؟ أعظم عقلكم ... [هذه النقط الثلاث موجودة بالأصل وكذلك البياض قبل كلمة أعظم] تمنعكم من اجراء ذلك .

أما نحن فقد نذرنا أموالنا ونفوسنا فدية عن الوطن ، فلم تعد لنا بل له ، فوالله العظيم لنقلقن راحة الموت التي أنتم فيها ولو شربنا كاس الحمام ومن يعش يرى

(١) وجد معلقاً على الأبواب والجدران في شوارع بيروت في ٢٧ حزيران سنة ١٨٨٠ ، وهو محفوظ بصورته الأصلية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المنشور الثاني [١]

اعلان

بالسيف يضرب كل أمر ينزح فاطلب به إن كنت ممن يُفلحُ

يا أبناء سورية ، قام موسى مصلحاً فقال المصريون به جنة ، وقام سقراط مصلحاً فقتله اليونان ، وقام عيسى مصلحاً فقال اليهود به شيطان ، وقام محمد مصلحاً فقال عرب الجاهلية انه مجنون ، وأنتم تقولون ان صاحب ذاك الاعلان (بل قولوا أصحاب) هو سكران وان كلامه هذيان ، فان كان سكرانكم يعتني بأموركم فهو خير من صاحبكم الذي لا يهمه أمركم ولا حفظ ناموسكم ، وياليتكم كلكم سكارى . نحن الذين يحيون الليل بأعمال دولاب الأفكار ويقضون النهار باستكشاف الحوادث والأخبار ، فلولا موتنا لما نكون للترك الذليل عبيداً . ولولا شقاقنا لم نكن عند الافرنج حجارة وحديدا . أين نخوتكم العربية ، أين حميتكم السورية ؟ عودوا يا قوم والعـــود أحمد ، ولا تقنطوا من رحمة ربكم ، فلن يخفى القمر ، ومن يعش يرى .

المنشور الثالث [٢]

الويل

يا أهل الوطن ، قد علمتم بفجور الأتراك وظلمهم ، وإن فئة منهم قد تحكمت في رقابكم واستعبدتكم ، وانهم قد درسوا شريعتكم ، وامتهنوا حرمة كتبكم ، حتى انهم سنوا نظامات تقضي بملاشاة لغتكم الشريفة ، وسدوا أبواب النجاح ، واتخذوكم أرقاء كأن لا شيء من شعائر الانسانية عندكم .

---

(١) لا ذكر لتاريخ نشره ، وتحت كلمة اعلان توجد صورة سيف مسلول .

(٢) لا ذكر لتاريخ نشره ، وعلى جانبي كلمة « الويل » توجد صورة سيف مسلول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقدماً كنتم أصحاب الحل والعقد ، ومنكم ظهر أولو العلم والفضل ، وبكم أهلت البلاد وامتدت الفتوحات ، وعلى قواعد لغتكم بنيت أصول الخلافة التي اختلسها منكم الأتراك . انظروا إلى رجالكم كيف تقاد إلى الحرب عند الشدة ، وكيف يعرّضون إلى القتل ، وبأية معاملة يعاملون . وانظروا إلى أوقاتكم كيف وبأية طريقة تصرف . أما الآن بعد الائتمار مع إخواننا في اقصاء البلاد قر القرار وصدر الحكم بطلب ما يأتي قبل التقاضي إلى حد السيف ، فان حصلتم عليه الفتنا إلى تدبير أمورنا وإلا فاننا :

سنطلبن بحد السيف مأربنا فلا يخيب لنا في جنبه أربُ
ونتركن علوج الترك تندب ما قد قدمته أياديها وتنتحب

أما الأمور التي صدر الحكم في مجلسنا بطلبها فهي :

أولاً — استقلال نشترك به مع إخوتنا اللبنانيين بحيث تضمنا الصوالح الوطنية .

ثانياً — ان تكون اللغة العربية رسمية في البلاد ، وان يحق لأبنائها الحرية التامة في نشر أفكارهم ومؤلفاتهم وجرنالاتهم بمقتضى واجبات الانسانية ومقتضيات التقدم والعمران .

ثالثاً — ان تنحصر عساكرنا في خدمة الوطن وتتخلص من عبودية الرؤساء الأتراك . وهناك بعض تنقيحات وامتيازات أخرى لا بد منها يترك البحث فيها إلى أوقاته .

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الرُّكَبُ
فيما التعلل بالآمال تخدعكم وأنتم بين راحات القنا سلب
لا دولة لكم يشتد أزركم بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أليس فيكم دم [يهتاج الف ؟] يوماً فيدفع هذا العار إذ يثب
ومن يعش يرى والأيام مقبلة يلوح للمرء في أحداثها عجب

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اجتهدنا للوقوف على آراء المعاصرين في هذه المناشير ، وحاولنا العثور على غيرها ، إذ بعد أن قرأناها في سجلات وزارة الخارجية البريطانية ذهبنا إلى باريس وفتشنا في سجلات وزارة الخارجية هناك ، فلم نجد إلا ترجمة فرنسية للمنشور الأول والثالث ، ولكنا عثرنا في باريس كما عثرنا في لندن على تقارير القناصل وتعليقهم على المناشير .

وقبل بحث هذه التقارير يمكننا ، بناء على مادة المناشير ، وعلى الحقائق الثابتة التي تقدمت في هذه المقالة ، رد الزعم القائل ان أصل المناشير جمعية مكونة من خمسة شبان من النصارى كانوا حينئذٍ طلاباً في الكلية السورية الانجيلية ، إذ من غير المعقول في تلك الأيام أن يهتم هؤلاء بأمور الخلافة والشريعة والأوقاف أو بأمور الجندية التي كانت مقصورة على المسلمين ، بل الأحرى أن يكون كاتب المنشور الثالث على الأقل مسلماً . ولكن المناشير كلها تعرب إعراباً واضحاً عن ناحيتي الاستياء السوري من الحكم العثماني التي ذكرناهما : الناحية الدينية الخاصة بالمسلمين ، والناحية الوطنية الخاصة بالسوريين إجمالاً من مسلمين ونصارى .

وهاتان الناحيتان ظاهرتان في المنشور الثالث ، فقد اكتفى الكاتب المسلم ، على ما نعتقد ، بالشكوى من اغتصاب الخلافة والحد من حكم الشريعة وسوء التصرف بالأوقاف ، وإرسال الجنود السوريين إلى ميادين القتال في بلاد بعيدة ، ولم يطلب إعادة الخلافة للعرب ، أو إعلان دولة عربية إسلامية ، أو إعلاء شأن الشريعة في المحاكم النظامية ، أو وضع الأوقاف المحلية تحت مراقبة الأهالي ، بل اكتفى بطلب أهم ما اتفق المسلمون والنصارى العرب في سورية على طلبه ، وهو استقلال داخلي ضمن وحدة سورية تشمل لبنان ، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد ، وهما مطلبان يتعلقان بالوطن السوري وحده ، لا بجامعة إسلامية حتى ولا بجامعة عربية ، فالمناشير على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا من أول مظاهر تعاون مفكري العرب من المسلمين والنصارى في سبيل مصلحة وطنية سورية عربية .

ولولا القناصل لما وقفنا على المناشير ، ولما عرفنا ما قاله المعاصرون عنها ، إذ لم تتناولها أقلام الكتاب في عهدها لاشتداد المراقبة الحميدية ، ولم يذكرها أحد من الذين خلفوا مذكرات ، فجاءت معرفتنا بمعظم ما قاله السوريون عنها عن طريق أجنبي . فالقنصل البريطاني في دمشق يتفق مع زميله في بيروت على أن كثيراً من السوريين اعتبروا مدحت باشا محرضاً على إصدار المناشير ، وهو ما يقوله سركيس في كتابه المذكور . ويتفق القنصلان أيضاً على أن يد المسلمين في إصدارها كانت أظهر من يد النصارى ، ويثبتان ذلك بما اتخذته السلطات العثمانية من إجراآت ، فقد اعتُقل نصرانيان (أحدهما بروتستانتي المذهب) حامت حولهما الشبهة في دمشق وأُبعدا ، واعتقل غيرهما في صيدا ، ولكن أشد ضربة وقعت على المسلمين ، فقد اعتبرت السلطات أن جمعية المقاصد الخيرية هي المسؤولة الأولى ، فأغلقت مكاتبها ومنعتها من الاشتغال بالتعليم ، وحولت أموالها ووظائفها إلى مجلس المعارف الرسمي .

أما تقارير قناصل فرنسا فيظهر فيها شيء من التطرف ، ولكنها تنص على أن حمدي باشا (خلف مدحت باشا) ، ومتصرف لبنان رستم باشا ، كلاهما اتهما جمعية المقاصد الخيرية . يقول القنصل العام في بيروت في تقرير له مؤرخ في ٣٠ كانون الأول ١٨٨٠ أن المناشير حرضت على الثـــورة ، وان الوالي هدد باعلان الأحكام العرفية لولا أن قدم له وجهاء المسلمين في بيروت تأكيدات خطية (١) . ويقول أيضاً ان جمعية المقاصد أدخلت بعض

(١) Archive du Ministére des affaires Étrangères : Turquèe (Beyrout), XXIII No. 48

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

النصارى بين أعضائها لتغطية دسائسها وأغراضها السياسية ، فلما صدرت المناشير بثت الجمعية أعضاءها بين الناس ، فهذا يشيع ان المناشير من تحريض الانكليز ، وذاك انها من دسائس الافرنسيس ، وغيره ينسبها إلى نصارى سورية . ومع هذا فالقنصل لا يستبعد أن يكون لبعض النصارى يد في إصدار المناشير الأولى في دمشق ، وخاصة أولئك الذين تعلموا مبادىء روسّو في « الكليات » التي لا يسميها . ويزيد القنصل على ذلك أن ذكر الخلافة في المناشير قد يكون أصله دعاية الخديوي السابق اسماعيل .

يؤخذ من تقارير القناصل أن كاتبي المناشير ومذيعيها كانوا أفراداً قلائل ، لا تسندهم فئة يعتد بها في البلاد ، وان أكثر السوريين لم يهتموا بالمناشير ، وان أمرها كان صرخة في واد . ولكن هذه الصرخة قد أقلقت الحكومة العثمانية حقيقة ، فبعدها اشتدت المراقبة على الجمعيات والاجتماعات ، والصحف والمطبوعات . وغاب عن القناصل أن يقدروا أثر المناشير في تاريخ حركة الاستقلال الذاتي السوري ، فالمبادىء والمطالب التي جاءت في المناشير كونت الأساس لمبادىء الأحزاب السورية العربية ومطالب السوريين العرب في الدولة العثمانية ، من عهدها حتى الحرب العالمية الأولى ، وقيـــام الثورة العربية في الحجاز .

فبناء على الوثائق والحقائق المار ذكرها يصح أن نستنتج ما يأتي :

(١) ان أول دعوة لفصل الدين عن الدولة في سورية قد جاءت في منشور من ابراهيم باشا المصري ، فهو السابق وغيره من النصارى أو المسلمين لاحق .

(٢) ان أول إعلان للمساواة بين معتنقي الأديان المختلفة قد ورد في مرسومي السلطان عبد المجيد في سنة ١٨٣٩ و سنة ١٨٥٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣) ان أول فكرة للاستقلال العربي وتأسيس دولة عربية مستقلة عن السلطنة العثمانية ظهرت في شمال سورية حوالى سنة ١٨٥٨ .

(٤) إن أول دعوة فعلية لتأسيس هذه الدولة ظهرت في سورية بين المسلمين الذين أشركوا إخوانهم النصارى في ذلك حوالى سنة ١٨٧٩ .

(٥) ان المناشير التي دعت إلى الإصلاح والاستقلال الذاتي السوري قد كتبها المسلمون وعاونهم فيها وفي طلب الإصلاح إخوانهم النصارى .

الدكتور عبد اللطيف الطيباوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net